وقفات مع حديث

من قال هلك الناس فهو أهلكهم

سليمان بن ناصر العلوان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد فنحمد الله جل وعلا على أن يسر لنا تفريغ هذه المادة الصوتية للعلامة المحدث أبو عبد الله سليمان بن ناصر بن عبد الله العلوان ثبته الله والتي تتضمن شرح حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم (مَنْ قَالَ هَلَكَ النَّاس فَهُوَ أَهْلَكَهُم) وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لمتابعة كتب وصوتيات الإمام

سليمان بن ناصر بن عبد الله العلوان

@Al3lawan7

تم نشر هذا التفريغ في:

ربيع الآخر 1436هـ

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا . حديث «من قال هلك الناس» هذا في الصحيحين ، هذا متَّفق على صحته ، واختلف العلماء في ضَبْطِه وفي معناه «مَنْ قَالَ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُم» ، أو «مَنْ قَالَ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكَهُم» ضُبط بالوجهين «فَهُوَ أَهْلَكُهُم» على أنَّه خبر ، وعلى أنَّه «أَهْلَكَهُم» على أنَّه فعل ، فعلى المعنى الأوَّل: «فَهُوَ أَهْلَكُهُم» أي: فهو أول الهالكين ، إذا كان النَّاس هالكين فهو أوَّل الهالكين ، وعلى المعنى الثاني: «فَهُوَ أَهْلَكَهُم» أي: فهو الَّذي أهلكهم وجرَّ إليهم البلاء وجرَّ إليهم الهلاك ، لأنَّه بإعجابه بنفسه كان سببًا في هلاك النَّاس ، والعلماء يختلفون أيضًا في المعنى والقصد في هذا الخبر .

الوقفة الأولى

من قال: **هلك النَّاس** على وجه الخبريَّة ، وأنَّ النَّاس فيهم هلاك ، وفيهم ضلال ، وفيهم انحراف كان هذا جائزًا لم يكن هذا ممنوعًا ، ومن قال هذا على وجه الإعجاب بنفسه والتَّنقُّص والاحتقار للآخرين كان هذا مذمومًا ، لأنَّ بعض النَّاس يقول: أنَّ النَّاس هَلْكَى إشارةً إلى الإعجاب بنفسه والإعجاب بعمله ، وإلى تنقُّص النَّاس واحتقارهم ، وكأنَّه يُثْنِي على نفسه أنَّه لا يوجد صالحٌ إلَّا هو ، ولا يوجد ناجٍ إلَّا هو ، ولا يوجد خيِّرٌ إلَّا هو ، ولا يوجدُ مستقيمٌ إلَّا هو ، ففي هذه الحالة يكونُ من الهالكين ، وفي مسندِ الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ من حديثِ ابنِ عمرَ : أنَّ النَّبي ﷺ قال: «مَنْ تَعَاظَمَ فِيْ نَفْسِهِ أَوْ اِخْتَالَ فِيْ مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانَ».

فقوله ﷺ : «مَنْ تَعَاظَمَ فِيْ نَفْسِهِ» التَّعاظم في النَّفسِ كبيرةٌ من الكبائِر ، وهذا يوجدُ في طبقةٍ من المغرورين بأنفسهم والمعجبين بأعمالهم ، الَّذينَ يتصوَّرونَ أنَّهم أوتادٌ من أوتادِ الدِّين ، بمعنى: لو ذهبوا لذهب الدين كلّه ، وأنَّ الدِّين قائمٌ عليهم ما قام على غيرهم ، والإنسان مهما عَمِلَ من الأعمال يزدري ذلك ويحتقرُه ولا يستكثره في جانبِ فضلِ اللهِ عليه ، اللهُ ﷻ يقول: ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:74] ، فلو وَكَلَ اللهُ ﷻ العبدَ إلى نفسه ما بقيَت له قائمةٌ وَلَهَلَك . وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُواْ فَلَا تَكَلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». وكل ما تفعله وما تقدمه فهذا من فضل الله عليك ، ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:21] .

الوقفة الثانية

فَضْلُ الله على العبد عظيم ، ومن أعظم فضل الله على العبد على الإطلاق: هو مِنَّته عليه بالدُّخولِ في الإسلام ، ثُمَّ تثبيته على ذلك ، ثُمَّ الاجتهادُ في الأعمالِ الصَّالحة ، وبقدر ما يتبرَّأ العبد من حَوْلِهِ ومن قوَّتِهِ بِقَدْرِ ما يزيده الله ﷻ ثباتًا وقوةً ويقينًا وتصديقًا ولجوءًا إلى الله وتعلقًا بالله ﷻ ، وبقدر ما يُعْجَبُ العبدُ بعملِه بِقَدْرِ ما يتخلَّى الله ﷻ ويَكِلُهُ إلى نفسه ، وحينئذٍ يُبتلى بالهموم والأحزان والأنصاب وتسلُّط الشياطين عليه وعادةً مثل هذا ما يَثْبُت ، وفي أوَّل ابتلاءٍ يسقُط ، لأنَّ هذا ما تعلَّقَ باللهِ ﷻ ولا حقَّقَ مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]. فقوله ﷻ :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾أي: لا نعبد إلا إيَّاك ، وتقديم المَعْمُولِ هُنَا على العَامِلِ لإفادة الحصر ، أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك ، ولا نستعين إلَّا بك ، وحين أُلقيَ إبراهيم في النَّار ماذا قال؟ قال: **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل** ، لم يلتفت قلبه إلى غير الله ﷻ ، وحين قيل للنبي ﷺ : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُم﴾ [آل عمران:173] قال: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْل﴾[آل عمران:173]. لم يلتفت قلبه إلى غير الله ﷻ ، بِقَدْرِ اِلْتِفَاتِ العبد إلى المخلوق بِقَدْرِ ما يُخْذَل .

إِذَا اِنْقَطَعَتْ أَطْمَاعُ عَبْدٍ عَنِ الوَرَى * * تَعَلَّقَ بِالرَّبِّ الكَرِيْمِ رَجَاؤُه

فَأَصْبَحَ حُرًّا عِزَّةً وَقَنَاعَةً * * عَلَى وَجْهِهِ أَنْوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ

وَإِنْ عَلُقَتْ بِالخَلْقِ أَطْمَاعُ نَفْسِهِ * * تَبَاعَدَ مَا يَرْجُو وَطَالَ عَنَاؤُهُ

فَلَا تَرْجُ إِلَّا اللهَ فِي الخَطْبِ وَحْدَهُ * * وَلَوْ صَحَّ فِيْ خِلِّ الصَّفَاءِ صَفَاؤُهُ

الوقفة الثالثة

يقول ابن عَقِيلٍ الحَنْبَلِيّ: **(لَا تَنْظُرْ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ اِزْدِحَامِهِمْ عِنْدَ أَبْوَابِ المسَاجِد وَلَا فِي الحَجِّ: "لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْك" وَلَكِن أُنْظُرْهُمْ عِنْدَ مَوَاطَأَةِ أَعْدَاءِ الشَّرِيْعَة وَعِنْدَ حُدُوْثِ المصَائِبْ وَالنَّكَبَاتِ وَالشَّدَائِد)**. أي: إلى من يفزعون وبمن يتعلَّقون ، فالإنسان ربَّما لو كان له جاهٌ أو لأهله جاه أو قرابة أو قوَّةٌ في نسبٍ أو قوةٌ عسكرية أو قوةٌ قَبَلِيَّة ربَّما يلجأُ إليهم ويتعلَّقُ بهم أو لهم جاهٌ عِنْدَ السُّلطان وأُصيبَ بمصيبة ربَّما يتعلقُ قلبه بأقاربه فيُخذَل ، لأنَّه لابُدَّ أنْ يتعلَّق قلبه بالله ﷻ ، لأنَّ الله إنْ لم ييسر هذا لم يتيسَّر ، ربَّما أقربُ النَّاسِ إليك يتسلَّط عليك ويكون أشدَّ النَّاس عداوةً لك ، وتأمَّل في سِيَرِ الأنبياء وتعلّقُهم باللهِ ﷻ ، فهذا ما يذكره الله ﷻ عن نَبِيِّهِ نوح ﵇ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ ﴾[يونس:71] ، فهذا يُعلنُ التَّحدِّي للجميع لثقته بالله ﷻ وتعلقه به ، وهذا النَّبي ﷺ معَ ما يُلاقِي من الشدائد وحين أُخرج من مكَّة وذهب إلى الطَّائف وأراد أنْ يعود من الطَّائف إلى مكَّة منعهُ قومُه حتَّى دخل بجوار المُطْعِم بن عَدِيّ ، وحين دخل بجوار المُطْعِم بن عَدِيّ أُمِرَ بالهجرة بعد ذلك فهاجر إلى المدينة ، وكان قلبُه مُعلَّقًا بالله ﷻ ، وحين ذهب إلى الغار ومعه أبو بكر الصِّدِّيق ، فقال له: لو نظر رجلٌ إلى نعله لرآنا ، قال: ما ظَنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟ تَعَلَّقَ باللهِ ﷻ ، وتأمل في سِيَرِ الأئمَّة الَّذين لهم ارتباطٌ ولهم موروثٌ من موروثِ النَّبي ﷺ كيف كان تَعَلّقهم وتوكّلهم على اللهِ ﷻ ، وتنقُّصهم واحتقارُهم لِأنْفسهِم ، وأنَّهم لا شَيْءَ منهم إلَّا من الله ﷻ .

الوقفة الرابعة

كان يقول بِشْر الحَافِي **(بِئسَ العَبْدُ الَّذِيْ لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ إِلَّا فِيْ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ)** ، يعني يجب عليك أن تعرف ربك بما أنعم الله عليك ، نعمة الإسلام ، نعمة الثَّبات ، نعمة التَّوحيد ، نعمة العقيدة ، هذه أعظم من نِعَمِ المأكل ونِعَمِ المَشرب .

الإمام أحمد رحمه الله تعالى من قوَّةِ توكُّلِه على اللهِ ﷻ وتعلُّقِهِ به حين أُدخل على المُعْتَصِم وكان بيَدَيْهِ ورجلَيْهِ السَّلاسِل وكان يمشي ببطء ، فقال له المُعْتَصِم: تَكلَّم يا أحمد ولا تَخَف ، فقال الإمام أحمد: أخاف!! والله لقد أُدخِلْتُ عليك وما في قلبي مثقالُ ذرةٍ من خوف ، لكن هو ما ترى وأشار إلى يدَيهِ ورجلَيهِ من السَّلاسِل وثقلها .

الوقفة الخامسة

وهذا شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رحمه الله تعالى حين ذَهَب إلى مِصْر وكانوا قد أعدُّوا العُدَّةَ لقتله ، وحين يأتي بعض المحبون له يطالبه بالرُّجوع وكان مُضْطَجِعًا فاستنهض وأخذ التُّراب بيده ونفخه ، قال: إن هم إلا كالتُّراب ، لأنَّ هؤلاء متعلقون بالله ﷻ ، وَبِقَدْرِ إيمان العبد وقوته بالقضاء والقدر خيره وشره بِقَدْرِ ما يكون تعلُّقه بالله ﷻ وهو يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال الله ﷻ: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:22] .

والله ﷻ لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم ، فالقلوب بصدقِها ونصحِها ونقاوتِها وطهارتِها ليس في القلب حسد ، وليس في القلب غلٌّ على المسلمين ، وليس في القلب إعجاب ، وليس في القلب محاولة مكرٍ بالمسلمين ، القلب نقيٌّ للمسلمين طاهرٌ للمسلمين لا يريد بهم إلَّا الخير ، كذلك لا ينظر إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم .

ولذلك في حديث عبد العزيز بن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن أبيه في صحيح الإمام البخاريّ ، عن أبيه ، عن سهل بن سعد قال: " بينما نحن جلوس عند النَّبي ﷺ إذ طلع علينا رجل ، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حَرِيٌّ إنْ نَكح أنْ يُنكَح ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشفَّع ، وإنْ قال أنْ يُستمَع لقوله ، فسكت النَّبي ﷺ ثمَّ مرَّ رجلٌ آخر ، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حَرِيٌّ إنْ نَكَح أنْ لا يُنكَح ، وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّع ، وإنْ قال أنْ لا يُستمَع لقوله ، فقال النَّبي ﷺ : هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ من مثل هذا ، مع أنَّ الميزان الَّذي يقول: هذا إنْ نَكَحَ يُنْكَح وإنْ شَفَعَ يُشفَّع هو ميزان الصَّحابة ﷺ ، الَّذين كانوا جالسين عند النَّبي ﷺ ، فالأوَّل إنْ شَفَع يُشفَّع ، وإنْ قال يُستمَع لقوله ، والثَّاني إنْ شَفَع أنْ لا يُشَفَّع ، ومع ذلك هذا الَّذي يظنونه الصَّحابة أقلُّ قدرًا من الأوَّل ، قال عنه النَّبي ﷺ : هذا خيرٌ من ملءِ الأرض من مثل هذا ، ولذلك في صحيح الإمام مسلم من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال ﷺ : «**رُبَّ أَشْعَثَ ذِيْ طِمْرَيْنِ مَدْفُوْعٌ بِالْأَبْوَابِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**». أي: لِمَا له من الصِّدق في القلب ولِمَا عنده من اليقين ولِمَا عنده من المحبَّة للهِ وللرَّسُول ﷺ . ومن ثَمَّ يقول أبو بكر المُزَني رحمه الله تعالى عن أبي بكر الصِّديق: ما سبقهم بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن سبقهم بشيءٍ وقر في قلبه ، وهذا الَّذي وقر في قلبه هو حبُّ الله ، وحبُّ الرَّسول ﷺ ، ولذلك يقول الله ﷻ:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:60]. أي: خائفة مشفقة يخافون أنْ لا يُقْبَلَ ذلك منهم ، وكلُّ من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، وهذا أَحَد أسرا ر الرِّفْعَة والقَبُول .

الوقفة السادسة

كثيرٌ من الإخوان يسأل وقد أجبنا أكثر من مرة لماذا ارتفع أقوام في عصور السلف ولم يرتفع آخرون ؟ لِمَا لهم من المعاملة مع الله ﷻ ، ليست القضيَّة قضيَّة ظواهر ، وليست القضيَّة قضيَّة ثرثرة ، وليست القضيَّة قضيَّة كثرة أعمال ، هذه أمور محمودة لكن في شيء وراء ذلك وهو صِدْقُ النِّيَّة ، والإخلاص لله ﷻ ، كما قال الله ﷻ عن قوم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:9]. ولذلك جعل الله ﷻ لهم القبول .

لما قيل للإمام أحمد رحمه الله تعالى: من نَسْتَفْتِ بعدك؟ قال: اسألوا عبد الوهاب الورَّاق ، فقيل له ليس بذلك – **كأنَّهم قلَّلوا من علمه** – فقال: لكن معه وَرَع أي: يَمْنعُهُ أنْ يقولَ على الله ما لا يعلم .

وحين سُئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن مَعْرُوف الكَرْخِيّ ، فأثنى عليه خيرًا ، فقلَّل بعض الحاضرين من علمه ، قال: وهل يُراد من العلم إلَّا ما وصل إليه معروف ، الَّذي وصل إليه معروف ما هو؟ هو العمل بالعلم ، وخشيةُ الله ، والتَّقوى ، والمسارعة إلى طاعته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:24] أي: لِمَا فيهِ حياتكم ، وَلِمَا فيهِ عزُّكم ، وَلِمَا فيهِ رفعتكم .

الوقفة السابعة

قال ابن الجوزيّ في **(صَيْدِ الخَاطِرِ)** فصلٌ ، يقول: «إنَّه عَلَى قَدْرِ إجلالكم لله يُجلُّكم ، وعلى قَدْرِ تعظيمكم واحترامكم يُعظِّم قدركُم وحرمتكُم ، وقد أدركتُ واللهِ من أنفقَ عمره في العلم إلى أنْ كَبُرَت سِنُّه فتهاون في الحدود ، فكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته ، وأدركت من كان يراقب الله في صبوته مع قصوره إلى ذلك العَالِم ، فعظَّم الله قدره في القلوب حتَّى عَلِقَتْهُ النُّفوس ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير» ومن ثَمَّ أيضًا يقول: «بالله عليك يا مرفوع القدر بالتَّقوى ، لا تَبع عِزَّها بذلِّ المعاصي ، وصابِر عَطَشَ الهَوى في هجير المُشْتَهَى ، وإنْ أَمَضَّ وأَرْمَض ، وإذا بلغتَ النِّهَاية من الصَّبر فاحتكم وقل: فهذا مقامُ من لو أقسم على الله لَأَبَرَّه ، ومتى ما اشتدَّ عَطَشُكَ إلى ما تهوى فابسُط أنَامِل الرَجَاءِ إلى من عندهُ الرِيُّ الكامل ، وقل: قد عِيل صَبْرُ الطَبْع في سِنِيه العِجَاف ، فَعَجِّل لي العَام الَّذِي فيه أُغَاثُ وأَعْصِر ، قل لي: من أنت؟ وما عملك؟ وإلى أيّ شيءٍ ارتفع قدرك؟ يا من لا يصبر لحظةً عمَّا يشتهي ، بالله عليك أتدري من الرَّجُل؟ الرَّجُل والله من إذا خَلَى بالحرام ، وَقَدِرَ عليه ، وتقلَّل عطشًا إليه نَظَرَ إلى نَظِرِ المولى إليه فذهب عنه العطش ، كأنَّك لَا تترك لله إلَّا ما لَا تشتهي ، أو ما لا تقدر عليه ، أو ما لا طاقة لك به هيهات ، هيهات ، لا نِلْتَ وَلَايَةَ الله حتَّى تكون معاملتك خالصةً لله فتترك أطايبك ، تصبِر عن مُشْتَهَيَاتِك ، وَتَتْرُكُ شَهَوَاتِك» ، هذا كله لابن الجوزي في **(صيد الخاطر)** ، فالقضيَّة قضيَّة معاملة مع الله ﷻ ، لابُدَّ من تصحيح الأعمال .

الوقفة الثامنة

الإعجاب يؤدِّي بالعبد إلى الانحراف ، وإلى الضَّلال ، وإلى الانتكاس وهذه من أسباب التقلبات الموجودة ، بحيث لا يبقى القرار لكثيرٍ من الخَلْق يتقلبون مرةً في الشّمال ومرةً في الجنوب ولا يثبتون على شيءٍ ، ثُمَّ يلتمسون الأعذار لأنفسهم بأنَّ هذا من باب الاجتهاد ، الاجتهاد ليس الانتكاس ، فرقٌ بين الاجتهاد وبين الانتكاس، الاجتهاد في المسائل العلمية الفقهية كأن تقول اليوم أن لحم الإبل ينقض الوضوء وغدًا تقول: اجتهدت وتبين أنه ما ينقض ، كأن تقول مس الذكر ينقض الوضوء ومرةً تقول: لا ينقض ، هذه من مسائل الاجتهاد ، أما مسائل كبيرة ومسائل الأصول ومسائل العقائد ومسائل المناهج تتغير بأسرها كلها هذا من باب الاجتهاد! هذا لا قيمة له وهذا ليس من الاجتهاد في شيء ، هذا من التلون في دين الله ﷻ ، ودين الله واحد ، وهذه من أسباب عدم ثقة النَّاس اليوم بكثير من المنتسبين للعلم ، لأنَّه لا يدري ما هو عليه يجرُّهم إلى منهج ثُمَّ يُضَحُّون من أجل هذا المنهج ، ثُمَّ بعد سنتين أو ثلاث سنوات يَنْقَلِب على ما هُمْ عليه ومما كانوا عليه ، كانوا مِنْ قبل أئمَّةً أبرارًا يُشبَّهون بالصَّحابة ، يُشبهون بالمهاجرين والأنصار ثُمَّ بِقُدْرَةِ قادِرٍ يُصبِحُون خَوَارِج ضَالِّينَ ومنحرِفِين! طيِّب وقد تأتي إلينا من الغد بعد تقول: تبين لي أنَّ الَّذي كنتم عليه من قبل هو الصَّواب ، طيِّب وما يُدْرِيْنَا ما دام هذه التقلبات موجودة في أرض الواقع ، بحيث أنَّ الإنسان يقول القول ثُمَّ يرجع عنه غدًا ، وهذا أسبابه كثيرة منها: الرِّياء ، الإنسان قد يكون عنده رياء ، ويتطلَّع لِمَدْحِ النَّاس وإلى ثنائهم ، ما يريد من أحد أنْ يَذُمَّه ، وإذا ذَمَّهُ قومٌ في قضيَّةٍ أو مسألةٍ أو ثاروا عليه تراجع ، الَّذي يتكلم لله ما يتراجع في شيء ، ولذلك في الحديث المشهور وإن

كان فيه لين: أنَّ النبي ﷺ يقول: « **لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِيْنِى وَالقَمَرَ فِيْ يَسَارِيْ عَلَى أَنْ أَرْجِع عَنْ هَذَا الأَمْر مَا رَجَعْتُ**».

لأن الذي على الحق لا يرجع عن شيء لأنَّه يعبد الله ما يعبد الناس ، وهذا يعبد الجمهور ما يعبد الله ، فالَّذي يعبد الله لا يُبالي وافقه فلان أو علَّان .

الوقفة التاسعة

لمَّا قيل لإسحاق ابن رَاهَوَيْة وقرَّر مسألة ، إنَّ أخاكَ أحمد بن حنبل يوافقك في ذلك؟ قال: ما علمتُ أن أحدًا يوافقني ، يعني ما قلتُ هذا القول لأنَّ فلانًا أو علَّانًا يوافقِني على ذلك وما يَهُمّ ، ما دُمْتُ أنَّني على الحقّ لا يضرُّني أنْ لا يوافقني أحد ، ومن شأن أهل الخير في كل عصر أن يكونوا قِلَّة ، ومن شأنهم أنْ لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

الوقفة العاشرة

من أسباب التقلبات والضَّلال والانحراف: الإعجاب ، فبعض النَّاس عنده إعجاب داخلي بعمله ، يعني يتصوَّر أنَّه أفضل من غيره ، وما عنده معرفة بفضل الله عليه ، فمثلُ هذا عادةً ما يثبُت ويسقطُ في أوَّلِ مَحَكّ، فلابُدَّ للإنسان أن يتواضع لربه ، وقد يَظْهَرُ هذا على فَلَتَاتُ بعض النَّاس ، كالرَّجُل الَّذي قال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَان ، فَقَالَ اللهُ** ﷻ **: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرُ لِفُلَان إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُّ عَمَلَك**» فغُفر للمُفرِّط ، وَمَنْ ظَاهِرُه الخير والصَّلاح أُحْبِطَ عمله وأُلقيَ في النَّار ، لأنَّه مُعجبٌ بعمله فلذلك أدَّى به هذا إلى

التَّنقُّص واحتقار الآخرين ، وإلى ازدرائهم ، فالعبد لابُدَّ أنْ يتواضع لربه ﷻ ، وأنْ يُلِحَّ على الله ﷻ أنْ يكفيه شرَّ نفسه ، وكان من الأذكار الَّتي كان يُعلمها النَّبي ﷺ للصَّحابة كما يعلمهم السورة من القرآن: «**إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ شُرُوْرِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**» .

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفع ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَع ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَع ، وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**» . وهذا الحديث والذي قبله كلاهما في صحيح الإمام مسلم .

ولذلك يقول ابن القيم في نظم هذا المعنى :

وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى *** فَهُمَا لِكُلِّ الشَّـرِّ جَامِعَـتَانِ
وَهُمَا يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ *** قِ الخَيْرِ إِذْ فِي قَلْبِـهِ يَلِجَانِ
فَـتَـرَاهُ يَـمْـنَـعُـهُ هَـوَاهُ تَـارَةً *** وَالكِبْرُ أُخْرَى ثُـمَّ يَشْـتَـرِكَـانِ
وَاللَّهِ مَا فِـي الـنَّـارِ إِلَّا تَـابِـعٌ *** هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيْرَانِ
وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ اثْنَتَيْنِ هُـمَـا الـ *** لَّتَانِ بِهُلْكِ هَذَا الخَلْقِ كَافِلَتَانِ
شَرُّ النُّفُوسِ وَسِيِّءُ الأَعْمَالِ مَا *** وَاللهِ أَعْـظَـمُ مِـنْـهُـمَـا شَـرَّانِ
وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا *** فِي خُطْبَةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ *** فِي هَذِهِ الـدُّنْيَا هُمَا الشَّرَّانِ
جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ *** حَـتَّـى تَـرَاهُ دَاخِـلَ الأَكْـفَـانِ